العاطفة وارتباطها بالادب

للاستاذ عبد الحميد حسنه
بدار العلوم

(١)

يرتكز الأدب على دعائم تعلى صرحه وتسمو بمكانته وتجعله قوى الأثر . وأهمها : العاطفة والخيال والفكرة والاسلوب البيانى . وهذه العوامل هى التى تحدد للأدب نهجه وترسم له طريقه وتفسح للأديب المجال فيسبح فى جو من الجمال الفنى ويجمع من ازاهير الكون ما يعطر به القلوب . ويرتشف من ثمار المعانى ما تنشط به النفس . ويتخير من عذب الالحان ومنسجم القول ما يبعث الاعجاب . وهى فوق هذا ذات شأن فى الموازين التى يتأثر بها النقد الادبى والمفاضلة بين فنون الأدب والوانه ولهذا ايضا أثر فى اصناف الادباء وطبقاتهم واتجاههم على حسب ما يؤثرون من هذه العوامل وما يسيطر منها على انتاجهم

ولعل العاطفة أقوى العوامل اتصالا بالادب وبسائر الفنون الجميلة . واوضح أثراً . فهى الطابع الذى يميز الفنون وهى الجو الصافى الذى فيه تسبح والمعين الذى منه تنهل وترتوى

وسأتعرض فى هذا المقال للعاطفة وصلتها بالأدب ومدى هذه الصلة وفائدتها ثم أشير فى اجمال الى نصيب الأدب العربى من الوان العواطف .

* * *

وخير ما نتجه اليه لتعرف الصلة بين الأدب والعاطفة ان نلم فى ايجاز بحقيقة كل منهما .

فالأدب هو التعبير الجيد عن خير ما فى الحياة من روائع المعانى والخواطر النفسية . وان الميدان الذى يسرح فيه الأدب ويجول الأديب هو الميدان الحيوى والميدان النفسى . فالحياة وما فيها من مظاهر طبيعية وما يتجلى فيها من روابط انسانية ونظم حيوية وعادات اجتماعية وكذلك ما فى النفس البشرية من خواطر

وخلجات . كل هذا هو المعين الذى يستمد منه الأدب وهو الميدان الذى يجول فيه .

وليس الغرض من اتجاه الأدب الى هذه المنابع ان يوضح ما فيها من قواعد علمية او نظريات هندسية او حقائق اجتماعية او اصول للسلوك والتصرفات الانسانية فيدان ذلك هو العلوم . اما الأدب فمهمته فنية يتجه فيها الى ما فى هذه المنابع من اسرار ومايكمن فى ثناياها من رائع المعانى وما ينبث فى نواحيها من باهر الآيات التى لا تتجلى الا لذوى البصائر النافذة والحس المرهف والوجدان الحساس والأدب يسير فى هذه الميادين تحت ظلال العاطفة وفى كنفها ويتجه الى هذه المناهل فيبرز جمالها ويجلى اسرارها ويظهر منها هو كامن ويعرض كل هذا فى اسلوب يبعث الاعجاب ويهز العاطفة

وليست المنابع التى اشرنا اليها معينا للأدب وحده بل هى منابع عامة لالوان المعرفة الانسانية علمية وفنية فالعلوم كذلك تستمد عناصرها منها . وقد تكون الحقيقة الواحدة منبعا للعلم وللفن على حسب وجهة نظرنا وتبعا للقائد النفسى الذى يقودنا . ففى العلوم نتجه فى البحث مسترشدين بالعقل والمنطق وفى الفنون نستوحى العاطفة ونسترشد بها . على اننا لانخلى العلوم من العاطفة ولا الفنون من العقل والمنطق ولا ننكر ما بين العقل والعاطفة من صلة . ولكننا نقول ان السيطرة فى العلوم انما تكون للعقل وفى الفنون للعاطفة

فالاديب حين يعرض للزهرة أو للشمس او للصحراء او للسفن الماخرة او القصور الشاهقة او للطيور المسخرات فى جو السماء او نحو ذلك لا يتعرض لكل هذا من الجهة العلمية او الرياضية او التحديد الهندسى . ولكنه يتجه الى ما فى ذلك من مظاهر الروعة والجمال والى النواحى ذات الاثر النفسى فيصورها تصويرا يركز فى اكثر جهاته على الوجدان ويستثير العواطف ويرسم خلجات النفس وما عسى ان يكون من تجاوب بينها وبين المظاهر الخارجية فى الحياة . ويبرز ذلك فى مظهر فنى واسلوب ينم عن براعته فى البيان . ويظهر كل ذلك لا بالبراهين العلمية ولا بالاساليب المنطقية بل يوحى من الوجدان باسلوب يملك المشاعر . فالادب هو تصوير ما فى هذه المنابع تصويرا ينبع من عاطفة الاديب ويتجه الى عاطفة القارىء أو السامع ويلبس ثيابا من العبارة الجيدة والاسلوب الرصين .

ومن هذا يتضح أن الأدب وثيق الصلة بالحياة . وليس هو سلوة أو لهواً أو مضيعة للوقت ، ولكنه ينبع من الحياة ويمس صميمها ويمتزج بالنفس ويهز القلوب ويصور الميول والنزعات ويرسم ما يحيط بنا بأسلوب ناصع ويعزف على الأوتار الحساسة للفطرة الانسانية ، فهو من دعائم الحياة الاجتماعية والطبيعية والعقلية ، وهو الذي يكسب حياتنا الخصب والنماء ويزيدها بهجة وإمتاعا ولولاه لكانت الحياة جافة خالية من عوامل الاستجمام وتغذية الوجدان ومن الضوء الذى نرى فيه مظاهر الوجود .

فلننظر بعد هذا إلى حقيقة العاطفة ومجالها : العاطفة ناحية من الوجدان ولون من ألوانه . والوجدان مظهر من المظاهر الثلاثة للشعور ، وهى الفكر والوجدان والنزوع أو الارادة . فالفكر هو ناحية المعرفة المرتبطة بالحقائق وبالمعانى وإدراكها والتمييز بينها ، والنزوع هو القوة الدافعة التى تبعث على العمل ، والوجدان هو الناحية الحساسة فى النفس وهو مظهر السرور والألم . فكل آمالنا وآلامنا ومسراتنا وأحزاننا مرجعها الوجدان ، فهو الجانب النابض الحساس فى حياتنا النفسية ومصدر إدراك ما فى الحياة من جمال وروعة . واذا خمدت قوته وفترنشاطه وانحرف اتجاهه كانت الحياة مظلمة جافة جدبة كالأرض الجرز وكالجو الخالى من وسائل الحياة . . .

فالسرور والألم هما محور الوجدان ، واذا انبعث شيء من هذين عن الجسم كان الأثر جسميا وسمى احساسا وذلك كالألم من النار أو الآلات الحادة ، وكالسرور بالطعام الشهى أو الانتعاش من الهواء الطلق الرقيق فى الجو الحار . واذا انبعثت الآلام أو المسرات عن النفس كان الأثر انفعالا نفسيا وذلك كالسرور عند الظفر والألم عند الاخفاق أو الحزن لفقد عزيز أو الغضب عند الاهانة والاعتداء على الشرف إلى غير ذلك وهذه هى الناحية النفسية للوجدان .

والوجدان أقسام :

(١) الوجدان الفردى : وهو ما يتصل بالفرد ويدور حول نزعاته وميوله الخاصة كحب الذات والخوف والغضب وحب التملك والفخر بالنفس وغير ذلك .

(٢) الوجدان الاجتماعى : وهو ما يتصل بالمجتمع وشؤونه ويرتكز على صلة الانسان بغيره كالحب والبغض والاحترام والعطف والصداقة والمنافسة والوطنية . . .

(٣) العواطف : وهى الانفعالات النفسية المنظمة الموجهة إلى مؤثر خاص . وتنشأ عن الوجدان الفردى أو الاجتماعى فتكون عواطف فردية أو اجتماعية .

وميدان الحياة النفسية مملوء بالعواطف فى شتى أنواعها تبعا لاتجاه الميول الانسانية ، فاذا اعتاد الانسان أن يرى مظاهر الفقر اليوما يتناهبهم من آلام وأن يغشى الملاجىء التى تؤوى ذوى العاهات والضعاف . وأن يخبر سكان الأحياء الفقيرة الذين يرزحون تحت أعباء الزمن وويلاته فان هذا ينمى فيه عاطفة الرفق والرأفة ، وإذا أغرم بموطن ريفى فانه يحن اليه والى كوخه المتواضع ويؤثره على القصر المنيف ولعل الاطلال البالية يجد فيها من نعم بها وبما شاهد فى كنفها من عز وسعادة كثيراً من المعانى والايحاءات . وأن كثيراً من الذكريات التى تهيج الأشجان وتبعث الحنين مرجعها الى عواطف كامنة فى احناء الضلوع وخبايا النفس .

وهكذا نجد قوات الحياة تغمرها العواطف والبواعث الوجدانية ، ونرى فى مظاهر هذا الوجود آثاراً مما تجيش به النفس وتهتز له جوانبها الحساسة وتفيض به أعماقها الزاخرة بأنواع شتى .

وإذا بحثنا فى بناء حياتنا النفسية رأينا أن المادة التى تضم أجزاءها وتصل أطرافها وتقوى هيكلها هى الجزيئات الوجدانية .

وترتبط العواطف بالمثل الأعلى الذى يسعى الانسان لتحقيقه فتزداد سموا ورقيا والمثل العليا للانسان بملاحظة مظاهر شعوره الثلاثة هى الحق والجمال والخير فالحق هو المثل الاعلى للفكر والخير للارادة والجمال للوجدان . وعلى هذا تنقسم العواطف أقساما ثلاثة وهى :

(١) العواطف الفكرية الخاصة بحب الحق
(٢) « الجمالية « « الجمال
(٣) « الخلقية « « الخير

وتمتاز العواطف بأنها أبقى أثراً أما الانفعالات فانها وقتية ولا تلبث أن يخمد أثرها .

(الصلة بين الأدب والعاطفة) :

ظهر لنا مما أوضحنا أن الأدب هو الانتاج الرائع الذى ينبع من البيئة ويمتزج بالنفس ويصطبغ بألوانها وينعكس على مرآتها . فالنفس هى الوسيط أو المصنع الذى تصاغ فيه المعانى ومن أهم العوامل ذات الشأن فى هذا المصنع النفسى الوجدان فله فى هذا الانتاج شأن يقل ويضعف تبعا لنوع الانتاج وتنابعه . فإذا تحكم التفكير والمنطق كان أثر الوجدان قليلا كما فى الانتاج العلمى ، واذا أخلى الميدان للوجدان كانت له السيطرة والزعامة وهذا هو الذى يحدث فى الفنون .

فالعاطفة اذن هى لب الفنون وعمادها وهى التى تدور حولها المعانى والخواطر وهى المعزف الذى تصدح به أوتار الأدب وعليه يعزف الأديب ، وهى الشرفة التى يطل منها على ما تنطوى عليه النفوس من ألم وأمل ، والمنفذ الذى يصل منه الى القلوب ، وهى ترجمان لما يكمن فى مظاهر الحياة الطبيعية والاجتماعية وما يقبع بين طياتها ، وهى التى توجه الفن الى المثل العليا فى الحياة .

والصلة بين الأدب والعاطفة مظاهر فهى تتجلى فى الأديب وفى القارىء أو السامع وفى منابع الانتاج الأدبى من البيئة والفطرة : فهى للاديب مبعث لخواطره وشاحذ لانتاجه ، وللقارىء أوتار حساسة يجد فى نغماتها المعانى الحافزة ، وللانتاج الأدبى كالشذى يعطر ارجاءه أو كالماء النمير تنبعث عنه الحياة .

ولسنا نريد ان نقول ان العاطفة وحدها هى التى يجب أن تتحكم فى جميع الوان الأدب ولا ان نطبع الأدب بطابع واحد وهو انه عاطفى كله ، فللأدب نزعات واتجاهات شتى ، ولكننا نقول أن الأدب العاطفى له مكانته فى الحياة . ذلك أن نقول الوجدان هو محور الحياة الخلقية ودعامة لكثير من تصرفاتنا ، وهو كما علمت مبعث آلامنا وآمالنا ومنبع مسراتنا واحزاننا وعليه ترتكز روابطنا الاجتماعية والصلات النفسية بين بنى الانسان ومنه تستمد الانسانية العطف الذى يحيا به افرادها . ولو خلت حياتنا من الوجدان لضاقت دائرتها وهبطت قيمة مافيها

وفوق ذلك نجد الوجدان عاملا عظيم الأثر فى تقدير الجمال وتذوقه وله شأن فى تكوين الذوق السليم وله الى جانب هذا أثر عظيم فى توجيه تفكيرنا وحياتنا وفى حفز البواعث النفسية التى تدفع الى العمل . وان العواطف النبيلة هى شعار الانسانية وغاية من غاياتها السامية

ولعلنا اذا استطعنا ان نطبع أفراد الامة بطابع من الوجدان السامى ونبيل العواطف فانا نتجه بهم الى مستوى رفيع من الانسانية ينعمون فيه بالخير وتسمو نفوسهم الى عالى المقاصد ويترفعون عما يصم أو يشين . وما قيمة امرىء اجدبت نفسه من العواطف واصاب وجدانه التصدع ولم يكن له من الحس الصافى نصيب ؟

على ان للوجدان وللعواطف ناحية لها شأنها ، فان الحياة ليست مادة فحسب ، وليس من الخيران تتحكم المادة وتسيطر على بنى الانسان فتسد جميع منافذ الحياة . واذا كان الانسان فى حاجة الى المادة ليتعلم بها فانه لاشد حاجة الى مايغذى به نفسه السابحة ووجدانه الطامح واشواقه المتعطشه وما يهدىء آلامه وينظم آماله فيعيش فى جو من السعادة والرضا . وان الانسان اذا غفل عن كل هذا وآثر عليه المادة وعبادتها فان المجتمع له من الحقوق ما يسيغ له تعقب هذه النزعات والنصح لهؤلاء الذين يغالون فى الأدب المادى الا تطيح بهم مطامعهم فيكونوا من عوامل جمود الأدب والهبوط به الى ميدان المساومة والربح المادى .

هذه هى مكانة الوجدان من حياة الفرد وحياة المجتمع . فما العوامل التى تنهض به ، والى أى الغايات والنواحى نلجأ لتوجيه العواطف وتغذيتها والسمو بها ؟

أن الأدب عامل من هذه العوامل ، فالعاطفة من أهم دعائمه ولا سيما الشعر ، وانه لجدير بالادباء ان ينفذوا الى ميدان العواطف ليكون انتاجهم مثمرا وليكون أدبهم غذاء صالحا للنفوس وعاملا من عوامل انهاض المجتمع والسمو بالحياة . فان الأدب يتخذ من الوجدان والعواطف منفذا الى النفس ، والعواطف تتخذ الأدب وسيلة لصقلها وحفزها وتوجيهها .

فأى الوان العواطف اجدى على الأدب وأعظم أثرا فى تحقيق غاياته ؟

لسنا نريد ان نتحكم فى نفوس الأدباء ولا فى عواطفهم ولكن من الحق علينا للأدب ان نبين العواطف التى تزيده خصبا وتسمو بمكانته وفائدته . ولا نعدو الصواب اذا قلنا اننا لا نريد ان يتسع ميدان الأدب لعواطف رخيصة أو هائمة أو هوجاء أو منحرفة عن الجادة ، ولا نود أن تنشط عواطف مصطنعة ملتوية أو عواطف فردية لاتثبت الا فى نفس صاحبها أو عواطف ضحلة لا تستند الى دعائم من الثقافة وفهم الحياة فكل هذه الانواع مما يهبط بالأدب ويصل به الى نوع أجوف ضئيل الأثر بعيد عن الفائدة أو الى لون من الأدب الرخيص

فلنبحث عن أمثل أنواع العواطف التى تجعل للأدب شأنا وتتجه به الى خير غاية

(يتبع) عبد الحميد حسنه